بسم الله الرحمن الرحيم

مائة يوم على خطف الفتيات تفتح ملفات تعليم الإناث في نيجيريا

يُحيي العالم هذه الأيام مرور مائة يوم على اختطاف الفتيات النيجيريات من مدرستهن الكائنة ببلدة تشيبوك بولاية بورنو في ٢٠١٤/٤/١٤. حيث تم خطف الفتيات ونسب الأمر زوراً وبهتاناً إلى الإسلام العظيم وهو بعيد كل البعد عن الإسلام وأحكامه الشرعية التي تنطلق من مبدأ كون المرأة عرضاً يجب أن يصان لا سلعة تستغل لتحقيق مآرب معينة. بعد مائة يوم من مناشدة الأهالي وحملات شارك فيها سياسيون ورموز من كافة أنحاء العالم لا تزال الفتيات مغيباتٍ عن ذويهن وأخبارهن مفقودة. ويتم إحياء هذه الذكرى بتجديد الحملة لتوعية العالم بأهمية المضي في البحث عن الفتيات عبر وقفات في دول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وأوروبا والولايات المتحدة يوم ٢٠١٤/٧/٢٣ ترفع فيها شعارات تحمل الهاشتاج الشهير (#BringBackOurGirls) أو "أعيدوا إلينا فتياتنا".

في منتصف الشهر الماضي وبعد قرابة ثلاثة أشهر من اختفاء الفتيات التقت الفتاة الباكستانية "ملالا يوسف زاي" بالرئيس النيجيري "جودلاك جوناثان" وناشدته بضرورة الاستمرار في البحث عن الفتيات. وأتت زيارتها بالتزامن مع عيد ميلادها السابع عشر وإحياء الأمم المتحدة لما أسموه بيوم ملالا، رفعت ملالا شعار "أقوى من العنف" وأطلقت حملتها بتغطية إعلامية مكثفة واهتمام كبير. واستقبل الرئيس الفتاة التي أُريد لها أن تكون أيقونة الانتصار على الظلم، وقد انصاع لطلبها بمقابلة ذوي الفتيات المختطفات بعد رفض استمر ثلاثة أشهر. ذهل النيجيريون من سرعة استجابة الرئيس لفتاة صغيرة السن وهو الذي لم يتحرك لدموع الأمهات أو رجاء الآباء. لم يستجب الرئيس لطلب فتاة عادية فالاستجابة لطلب ملالا مقرون بنيل رضا المجتمع الدولي ومن يهيمن عليه. رفعت ملالا شعار الدفاع عن التعليم الذي حرمت منه وحوربت من أجله ولكنها لا تملك إصلاح حال التعليم في نيجيريا وليس الأمر بسهولة رفع عزيمة الفتيات في المنطقة وحثهن على التعليم، ولو صدقت ملالا في هذا فالأولى بها أن تنخرط في التعليم النظامي بدلاً من التنقل في رحلات خاصة من أجل الحفاظ على مصالح البعض واستغلال قضايا المستضعفين.. الأولى بها أن تعود لمقاعد الدرس فالعلم نور.

أتت ملالا بعد أن بهت وهج الحملة العالمية وتركت وراءها الكثير من التساؤلات عن رئيس وحكومة تحثهم ملالا على البحث عن فتياتهم وحال بلاد استشرى فيها الفساد والإهمال على جميع الأصعدة، فإذا بهذه الزيارة تفتح ملفات شائكة. وما أن عادت ملالا من حيث أتت حتى تبادل الرئيس التهم مع ناشطي حملة "أطلقوا سراح فتياتنا" الذين أدركوا لأول مرة أنهم يحاربون على جبهتين وأن الحكومة طرف في القضية لم يتنبهوا له من قبل. استرجعوا أن خطف الفتيات لم يأت على حين غرة بل سبقه إنذارات تجاهلتها الحكومة وأن الجهات الأمنية قصرت لأبعد مدى في البحث عن الفتيات. وتساءل الجميع، هل عجزت الحكومة النيجيرية عن إنقاذ الفتيات خصوصاً وأنها ادّعت في السابق عن معرفة مكانهن؟ وأين ذهب جيش الخبراء الأجانب الذين استنجدت بهم والجنود الذين وصلوا لنيجيريا بالفعل؟! لماذا لم يقم الجيش باستجواب الفتيات اللواتي هربن والتقصي عن حال الأخريات (ذكرت بعض الفتيات ممن هربن "لجون سمبسون" أن الجيش لم يقم باستجوابهن – بي بي سي ٢٠١٤/٧/١٤).. ألف سؤال وسؤال دون إجابات مقنعة ولكن الكل بات يعلم أن الحكومة مقصرة والعازم إن همَّ بأمر لم يُعقه دون إدراكه شيء.

كشفت قضية الفتيات عن الكثير من الأمور، من أبرزها العجز الحكومي في الإنفاق على التعليم والجيش والصحة وغيرها، وقد قدمت مالالا نفسها تبرعاً بقيمة ٢٠٠ ألف دولار من مؤسستها إلى التعليم في منطقة شيبوك. عجبا أن تقدم فتاة في السابعة عشر تبرعاً لدولة تتباهى بطفرة اقتصادية ونمو على جميع الأصعدة! نمو اقتصادي وموارد هائلة ولكن أهل البلاد مغلوبون مطحونون وحكومتهم تتسول العون والدعم لإعادة فتياتها وتعليم الأخريات.

أيكون هذا حال إحدى أكبر القوى الاقتصادية في أفريقيا وإن كان هذا حال الأثرياء فما حال الدول الفقيرة الحبيسة في صحاري أفريقيا الحزينة؟

صدق الشاعر حين قال:

رُبّ عَيشٍ أخَفُّ منْهُ الحِمامُ ذَلّ مَنْ يَغْبِطُ الدّليل بعَيشِ

وفي ظل هذه الأجواء طلب الرئيس من البرلمان الموافقة على قرض خارجي بقيمة مليار دولار، إضافة لما حصل عليه إلى الآن، من أجل تحديث المعدات القتالية وتأهيل الجيش لمكافحة الإرهاب. قابل الرأي العام النيجيري طلب الرئيس بتعجب من جرأته وسخر الناس من تثاقل حكومته في تأمين البلاد وإعادة الفتيات، حتى أصبح مضرباً للمثل والتندر. كما لاحظ الجميع التضارب الصارخ بين تباهي وزير الاقتصاد بالطفرة والنمو والريادة وبين الحاجة لتكبيل الشعب بالمزيد من القروض، أين ذهبت ميزانية الدفاع منذ ١٩٩٩ ولماذا تعجز الدولة عن مواجهة نزاع داخلي بالميزانية الحالية التي يخصص فيها ٢٠% للدفاع؟ تتكرر الأسئلة وتشير أصابع الاتهام مجددا للفساد وقصصه التي لا تنتهي ولتبديد الحكومة للأموال في بذخ ومظاهر لا تنفع. (ديلي إندبندنت، لاغوس ٢٠١٤/٧/٢).

خَطفت بوكو حرام الفتيات النيجيريات ولكن الأكيد أن الحكومات النيجيرية المتعاقبة خطفت السعادة والعيش الكريم من فتيات نيجيريا وحرمتهن حقهن في التعليم. علق الرئيس "جودلاك جونثان" خلال تدشينه "مبادرة المدارس الآمنة" بأبوجا في منتصف شهر حزيران/يونيو على ارتفاع نسبة التسرب من التعليم إلى ٧٠% في بعض المناطق "إن هذه النسبة غير مقبولة على الإطلاق"، ونسب هذا الارتفاع إلى العمليات الإرهابية بولاية بورنو المعقل الرئيسي لجماعة بوكو حرام. وأضاف أن التلاميذ يتجنبون الذهاب للمدارس خوفاً على حياتهم وتجنباً للاختطاف (المصري اليوم ٢٠١٤/٧/١٠). اللافت أن الرئيس نسب ارتفاع نسبة التسرب للإرهاب بالرغم من أن هذه الظاهرة لا تقتصر على المناطق التي تهيمن عليها بوكو حرام! بل إن هذا التسرب ليس بجديد وسبق بوكو حرام بأعوام. أكدت اليونسيف أن نسبة الأطفال من سن ٦-١١ عاماً في التعليم الأساسي لا تتجاوز الـ ٤٠% في البلاد وترتفع لـ ٤٧% في شمال البلاد ونسبت هذه النسبة الضعيفة إلى ازدياد عدد السكان في البلاد كما أشارت إلى أن معظم المدارس الأساسية، خصوصاً في المناطق الريفية، تفتقر إلى الماء النظيف والكهرباء والمرافق الصحية، وفي المعدل يتوفر مرحاض واحد لكل ٦٠٠ طالب. وأن التعليم يعاني من تراكم سنوات الإهمال الحكومي حتى إن ما تنفقه نيجيريا على التعليم يظل أقل مما تنفقه بلاد الوسط الأفريقي. ولن تتمكن نيجيريا من تحقيق أهدافها المعلنة "التعليم من أجل الجميع" في عام ٢٠١٥ (تقرير اليونسيف على الموقع الرسمي). هل تلقي الحكومة جريمة تخلف مليون ١٠,٥ طفل نيجيري عن التعليم على الأحداث الأخيرة في الشمال؟ إنه حصاد عقود من الإهمال والفساد والتضييع لحقوق الرعية؟! (تقرير التعليم من أجل الجميع ٢٠١٢). هذا التعداد للمتخلفين عن التعليم يعني دولة من الأطفال الذين يترعرعون في كنف الأمية والجهل وما يتبعه من إشكاليات وتأثير هذا على التنمية المستدامة في أكبر دول أفريقيا من حيث تعداد السكان وقوة اقتصادية لا يستهان بها من حيث ثراء وتنوع الثروات.

هذا الإهمال لا يقتصر على التعليم بل يتعداه لمجال الصحة وتأمين اللقاحات وتوفير العناية الصحية الأولية حيث يموت مليون طفل نيجيري سنوياً قبل أن يصلوا لسن الخامسة ويعد هذا العدد ١٠% من التعداد الكلي في العالم. أضف إلى ذلك ظهور نيجيريا في قائمة البلدان الأسوأ في معاملة الأم والطفل في العالم، ظهرت نيجيريا في ذيل القائمة التي تضم أفريقيا الوسطى، وغينيا بيساو، ومالي، والنيجر، وجمهورية الكونغو الديمقراطية، والصومال (تقرير منظمة أنقذوا الأطفال مايو ٢٠١٤).

خطف الفتيات ما هو إلا قمة هرم جبل الجليد ويخفي تآمراً على المرأة في جميع مراحل حياتها وتضييعاً لجميع حقوقها ومن انشغل بالتقاط الصور لقمة هذا الهرم يغض الطرف عن الملايين المحبوسين فيه وما يلاقونه من مشقة

وبؤس. انشغل العالم برفع لافتات تدعو إلى إعادة الفتيات وغض الطرف عن الجهة المنوط بها تأمين الرعية ورعاية شؤونهم على الوجه الأكمل. **الأزمة في الأساس هي أزمة حكم وفقدان لضوابط هذا الحكم وقواعده وأسسه.**

جميع الأطراف يتبادلون تهمة تسييس قضية الفتيات النيجيريات ويتراشقون التصريحات وهذا بحد ذاته مدعاة للسخرية. فالقضية مسيسة قبل أن تبدأ وكل طرف اتّخذها مطية لمآرب معينة، فمن أراد أن يهاجم الإسلام وجد فرصة لذلك، ومن أراد من المعارضة أن يشير لضعف الحكومة اتخذها ذريعة، والحكومة وجدت فيها بقرة حلوباً تدر المال وتلمع الحكومة التي بان فسادها وعوارها للقاصي والداني وتظهرها برداء أبيض ناصع. فتيات تشيبوك أصبحن كرتا رابحا بيد الحكومة والمعارضة على حد سواء، الكل اتخذهن مثل العلكة في الفم يلهو بالحديث عن وضعهن ولا يحدث شيء، تغيب القضية عن الإعلام فترة ثم تعود كلما دعت الحاجة.

تأتي هذه الذكرى وقد وافق الرئيس بعد تمام الأشهر الثلاثة على لقاء ذوي الفتيات. ولكنه لن يلتق كل الأهالي.. فقد قضى ١١ من آباء وأمهات الفتيات منذ اختطافهن. ونقل شهود عيان خبر تنقل والد إحدى الفتيات بين اليقظة والغيبوبة وهو يهذي باسم ابنته حتى وافته المنية (فوكس نيوز ٢٠١٤/٧/٢٢).

ربما يحيي النشطاء ذكرى خطف الفتيات ظناً منهم أن هذا سيعيد الأنظار لمأساة خطف الفتيات ولكن هذا بحد ذاته مشكلة إذ إنهم يقرون بأن الحكومة لا ترضخ إلا بعد الضغط الدولي وأن مظهرها أمام دول العالم ومصالحها مع بعض الأطراف يتصدر المشهد. إن كان مبلغ همّ الحاكم هو رأي المجتمع الدولي ولا يكترث لرعاية شؤون أهل البلاد إلا بالقدر الذي يحقق بعض المصالح فأي حكم هذا.. أوليس الأولى إنقاذ جميع فتيات نيجيريا من هكذا منظومة سياسية فاسدة؟!

ما أحوج أهل نيجيريا لنظام يحفظ كرامة الإنسان ويوفر الرعاية لكل فرد من أفراد الرعية، نظام توزع فيه الثروات وتعطى الحقوق ويوفر للناس الأمن والأمان ويحاسب كل فاسد! وختاماً، لعل الشعار الأنسب لهذه الحملة هو "أعيدوا للإنسان في نيجيريا إنسانيته وكفاكم استغلالاً للمرأة والفتاة".

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **«كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤول عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ ومَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، - قَالَ: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ: وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ - وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»** (أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عمر)

كتبته للمكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير

أم يحيى بنت محمد